ماهية التاريخ

وصفيًا وفلسفيًا

— ٢ —

نبشت الابحاث التاريخية رموس الماضي البائد وخرجت منها باجزاء متناثرة وبقايا من تراث الاولين ، واقامتها امام اعيننا كهيكل حفري من هياكل الحيوانات البائدة . وقفت على ذلك الهيكل عين الحكيم فاصاب حكمة ، ورأتهُ عين العالم فافاد علماً ، وتناولهُ خيال الشاعر فصاغ بياناً وسحراً ، واستوعبهُ الفنّان فرأب بهِ من صدوع الفن ما تطاولت اليهِ الايام فقصمت منهُ العُرى

لم تكشف لنا تلك الابحاث عن صور الحوادث العظمى المنسابة من جوف الازمان انسياب الماء الهادي في مجراهُ ، ولم تقتصر على الكشف عن كوارث الحياة المندفعة في سماء العصور اندفاع الشهب والنيازك خلال تتالي الاجيال لا غير ، بل أبانت لنا فوق ذلك عن حقيقة الحياة السياسية والمشاعر الدينية والنزعات الاجتماعية ومؤثراتها واسبابها ونتائجها التي اخذت بخناق الشعوب المختلفة والقبائل المتباينة . كل هذا تناولتهُ اقلام المؤرخين فخطت بهِ على لوح الحياة الحديثة سطوراً خالدة من آيات الحياة البائدة ، فامتزج كثير من الماضي بقليل من الحاضر ، وترامى الشعاع الذي ولّدهُ ذلك المزيج الى شعاب المستقبل ومفاوزه ، فازاح عن بعض نواحيها ما كان يكتنفها خلال الاجيال الاولى من ظلام

وصلت الابحاث التاريخية بين الماضي والحاضر بحلقات استكشفها المؤرخون ، حتى اصبحت سلسلة الحوادث محبوكة على الزمان التاريخي ، محيطة بكثير من دقائقه بله تفاصيله . ابانت لنا تلك الابحاث عن صور الماضي . فارتنا دولات الشرق تبرز عظيمة قنية ، او تتوارى وراء حجب الضعف ، وتغيب في جوف الحوادث ، مكتنفة بعوامل السقوط والفساد ، فتتمثل لنا هياكلها المروعة وقد طاولت السماك عظمة وقوة آونة ، او تلوح لنا هابطة الى الحضيض ذلاً واستكانة آونة اخرى ، وهي بين هذا وذاك اشبه الاشياء بارواح متمردة أصابها مس من الجن ، او خيالات جبابرة اخذتهم العزة بالاثم ، وهم في صراع لكل منهم فيهِ نوبة من الغلبة والاندحار ، فلن

تستبين من امرهم شيئاً الا حدساً ، كما تستبين الاشباح استباناً شاقاً وكلالاً ، اذ تتخايل اليك في آخر الافق العريض عند تنفس الفجر ، وقد شابتهُ ظلمة الليل ببعض ادناسها

أرتنا تلك الابحاث بلاد فارس وقد عقدت على ناصيتها الوية الانتصار ، ممتطية صهوة العزة والقوة ، متبعة خطى ملوكها المستبدين بامرها يقودونها من نصر الى نصر ، فكانت كذؤابة من الليل الحالك ناءت بكلكلها على الغرب وأرخت بسدولها على شرقي البحر الابيض المتوسط ، فشابت جزائر اليونان بشائبة من القوة فزع لها ابناء الاغريق فزعة بعثتها من انفسهم مخاطر الغزو الاجنبي ، وتمثل الذلة في الاندحار بعد العزة في شرف الحرية ، فدبّوا تحت قدمي جبار فارس وجنودهِ دبيب الماء تحت قواعد الجبال الراسية ، فلا يلبث ان يراها كثيباً مهيلاً

انقلب الاغريق بفزعهم الوطنية امة فتية موفورة الحياة ، فردت مستبد الشرق عن جدران الغرب ، وكان الفزع قد نبه فيهم ما اخفتهُ اجيال الدعة والطأنينة من صفات القوة والتناصر على الحياة ، فكان علماء اليونان وفلاسفتها وشعراؤها وكتابها وخطباؤها وساستها ، وعلى الجملة مدنيتها ورجالها الذين ظلوا هداة العالم ومبعث العرفان ، خمسة وعشرين قرناً من الزمان اورثوا المدنية خلالها تراثاً من العلم وثماراً من الفلسفة والشعر والسياسة والفن ، أرضى المنطق والذوق خلال عصور التاريخ برمتها

تتخايل انا مدنية الاغريق في ابان سطوتها فتتمثل انا آداب سقراط ، وروحانية افلاطون ، ومنطق ارسطو ، وسياسة سولون ، وعصر بركليس ، حتى اذا ما ادركها الانقسام في الداخل مقروناً بفزع الغزو الاجنبي من غربي اوربا ، تتخيلها ثانية ، فاذا بها كتلة موات من الانفس البشرية تتردى في الظلام

ولا تلبث بعد ان نرى الاغريق يتوارون وراء الافق ان تشرق امامنا شمس مقدونيا الفتاة ، بارزة من وراء حجب الغيب تستنير باشعتها كل بلاد اليونان وتخضع لقوتها وسلطانها

لقد استجمعت مقدونيا تلك البقايا المفككة من الوطنية الاغريقية وساورتها ذكريات الماضي العظيم الخالد ، فحركت فيها حماسة الذكرى من القومية وهزة الوطنية ، ما اخرج ابناءها عن حدود الغرب ليغزوا الشرق حتى صميمهُ ، فغزوهُ الى جوف الهند ، وكانوا كلما تقدموا في غزوتهم الشرقية خطوة ، تحطمت تحت اقدامهم التيجان

وثلت العروش وتهدمت الامبراطوريات ، كما تنهار الجدران المتداعية امام الفاس ، يضعها في اصولها جبار قوي الاصلاب

غير اننا لا نلبث على ذلك برهة وجيزة حتى نقع على دبيب الفساد يدب في نواحي الامبراطورية المقدونية ، وينتابها من العوامل الخفية ما يحفر تحت عظمتها الظاهرة هوة سحيقة ، يتقوض فيها بناؤها المشمخر ، فيتناثر اجزاء وقطعاً ، تشع كل قطعة منها بقليل من الضوء الموروث عن الشمس المحطومة على صخور الزمان ، ثم تنطفىء منها الجذوة تلو الجذوة ، كمنارات الرهبان المتعبدين في رؤوس الجبال المنقطعة عن العمران ، ان خبت نارهم فلا موقد لها

في وسط تلك المعمعة الكبرى التي تحطمت فيها امبراطورية مقدونيا ، بين صلصلة السيوف الباترة ، وبريق الاسنة المشرعة ، وبين تلك الضجة الكبرى التي احدثها تقوض اركان تلك الامبراطورية ، وصيحات الويل والاسى التي يبثها قوة التحليل في متانة التركيب ، تكشف لنا حجب الغيب المستور عن روما تتحرك كالافعيان الذي نقرأ اخباره في قصص السندباد ، يحمله البحر ويحمل فوق ظهره قارة برمتها . يتحرك ذلك الافعيان حركة الحياة من بقعة في الارض ان استظلت يوماً بشيء يبعثه في النفس من معنى شعري ، فهو الكون المطلق من كل الشوائب الا شائبة الحياة في جسم رومولوس ، والا صفة الجنو في قلب الذئبة ترضعه ثديها وتتعهده بالرباية ليبتني روما العظمية ، ولتقوم عليها الامبراطورية الرومانية العظمى

وكما ارتضع رومولوس ثدي الذئبة فصار فتى اسس روما ، كذلك ارتضعت روما ثدي ايطاليا ، فترعرعت وشبت الى الفتوة وما زالت تكبر وتمد سلطانها حتى تكون منها ذلك الافعيان الذي احاطت قوته بكل الامبراطوريات التي قامت وتحطمت خلال نشوئه من طور الطفولة الى طور النضج التام ، فاستظلت بظلاله بلاد الغال وقرطاجنة ومصر وفارس ومقدونيا والاغريق واشور وبابل وفينيقية . بل ان شئت فقل الدنيا المعروفة في ذلك العهد ترابطت اسبابها لتكون امبراطورية واحدة ، هي الامبراطورية الرومانية

غير أن ذلك الافعيان العظيم لم يبلغ منتهى قوته الا ليدركه الكلال والنصب . فتناوحت من حوله رياح الفساد ، وهبت عليه عواصف الانقسامات الداخلية ، فاخذت اجزاؤه تنحل جزءاً بعد جزء حتى ادركه التخلخل والانشعاب . وما هي الا

صيحة من صيحات الزمان وحركة من حركات الحدثان يبثها القدر في قلوب قبائل الشمال فتنقض على روما انقضاض الصواعق فتتركها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً

انقلبت في روما الخشونة والبساطة زخرفاً وتكلفاً . وارتدت الشجاعة اسفافاً ، والحرية استبداداً ، والبطولة اسماً اجوف لا مسميات له ، وتفككت بانحلال الاخلاق كل الروابط الاجتماعية التي تقوم عليها الممالك وتشيد الدول . واي انحلال في الاخلاق ابشع صورة من انحلال الاخلاق الموروثة في المرأة ، سادة المستقبل ، وعماد الاسرة ؟ واي انحلال في اخلاق المرأة اشد اسفافاً مما بلغتهُ نساء روما في آخر عصور الاضمحلال ، حيث كن يعددن السنين بعدد الرجال الذين احببنهم وكن منهم على صلة ، أقل ما فيها من فساد انها قلبت نظام الاسرة ، فحلت روابطها ، وفصمت عراها

لم يقف الامر في فساد روما عند هذا الحد . بل ان الراهب المتعبد المتوجه الى الله ارتد مشعوذاً يؤمن بالسحر والاساطير . وتبدلت روما من ابنائها الرومانيين بمجموعة من العبيد العتقاء الذين لم يكن فيهم من خلة ظاهرة الأثر الا انهم اكثر تشبهاً بربات الحجال منهم بالرجال . وأصبح الجيش ، وهو حافظ النظام في اول عصور المدنية الرومانية وجاني ذمار روما العظيمة وامبراطوريتها الكبرى ، آلة في يد كل من امتدت مطامعهُ الى التسلط السياسي ، وكانت فيه مهارة لاستدرار وحي العواطف بالكلام ، فقسد الامر كلهُ ونامت عوامل الفساد على ذلك الصرح المشيد فوق عواتق العظماء ، فدكتهُ دكاً بل نسفتهُ نسفاً

لقد مضينا في بحثنا حتى الآن نستورد صوراً يروي التاريخ من امثالها العدد الوافر . اما وقد بلغنا هذا المبلغ فانا نتساءل كما يتساءل كل من اخذ من بحث التاريخ بنصيب وضرب فيه بسهم : اي اثر لهذه الصور وامثالها مما يرويه التاريخ وتخطهُ لنا اقلام المؤرخين في الكشف عن ظلمات الحاضر او البيان عند خبايا المستقبل ؟ على ان الظن الغالب ليوحي الينا بان الاجابة على هذا السؤال لن تكون الا بالنظر في بضع حقائق تاريخية تتناول الحاضر وعلاقته بالماضي والمستقبل ، لنعرف الى اي حد تبلغ صور التاريخ من اثر في الكشف عن قضايا الزمان الحاضر ومشاكله ، وعن التي سوف تستحيل في المستقبل . فان الحاضر عبارة عن صورة متحولة عن الصور التي تشكلت فيها الجماعات الانسانية خلال الماضي ، وليس المستقبل الا صورة متحولة عن الصور التي نراها ونلمسها في الزمان الحاضر

ان « الحاضر » ، حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل ، ليظل امامنا سراً عميقاً ولغزاً وعراً ، اذا لم نستعن على فهمه وتعرُّف صيغته بمقدمات نستمدها من الماضي . فان اكثر الصور التي استحالت اليها نفسية الجماعات في هذا الزمان ظهوراً واشدها اثراً في حياة الناس ، كمعاهد الدين ونظامات القضاء والجيش والتعليم المدرسي ، لتلوح للذين لم ينالوا قسطاً من التثقيف وافراً ، كما تلوح للاطفال والصبية ، كأنها نظامات غرست في جوف الزمان وتغلغلت اساسها في صميم الازل واللانهاية ، تفاعل الشمس والكواكب والاجرام السيارة ، وان شئت فقل انها في نظرهم مشاركة للكون الاوسع في نظامه قدماً وضرباً في احشاء الدهور

أما اذا عاد الانسان الى الماضي والقى عليه نظرة تأمل ، عرف لاول وهلة ان نصيب هذه النظامات من البقاء كنصيب الزمان المنحدر في جوف الابد ، انحدار الماء في اليم اللامتناهي ، وان من طبيعتها التغير والزوال . لهذا يلقى في روعنا دائماً أن الزمان لا بد من ان ينتابها بالتغير والنشوء ، وان هذه النظامات لن تظل على وتيرة واحدة ، بل ان الطبيعة ان تسمح لها بالثبات ، لانها كما خرجت في الماضي من افكار الناس ومشاعرهم وعواطفهم وحاجاتهم ، فانها لا محالة تزول او يضعف اثرها بمقدار ما ينتاب افكار البشر ومشاعرهم وعواطفهم وحاجاتهم وما الى ذلك من التغير والاختلاف

وما التاريخ في حقيقة الواقع بشيء الا نتاج تلك الملكة العقلية التي تشوقنا الى تتبع آثار التغيرات التي خضعت لها النظامات منذ اول نشأتها وبدئها الى الوقت « الحاضر » ، وبذلك نستطيع ان ندرك خطرها وموقعها من الفائدة المحققة من حالات الاجتماع التي تكتنفنا اسبابه . ومن هذه الطريق وحدها يعصمنا التاريخ من المظاهر الخداعة التي قد تسوقنا في طريق الضلال . ومن غير ان نستعين بالتاريخ يستعصي بل يتعذر علينا ان نقضي بحكم صحيح في النظامات القائمة من حولنا ، أهي سائرة في سبيل النماء والقوة ، ام منقهقرة الى حضيض الفساد والضعف ؟ أهي قائمة على نفس الاسباب التي حملت الجماعات على تأسيسها وتشييد قواعدها ، ام اخذت تفقد من سلطانها شيئاً بزوال الاسباب التي دعت الى تكوينها في « الماضي » ؟

اسماعيل مظهر